من خطاب هارولد بنتر أمام لجنة نوبل للآداب

الفن والحقيقة والسياسة

هارولد بنتر
ترجمة : نجام الجبيلي

" في عام ١٩٥٨ كتبتُ ما يلي: " لا توجد فروق كبيرة بين ما هو حقيقي وزائف ، بين ما هو صادق وما هو كاذب . والشيء ليس بالضرورة يكون صادقاً أو زائفاً ، فيمكن أن يكون صادقاً وزائفاً في الوقت نفسه".

اعتقد أن هذه التأكيدات ما زال لها مغزى ولا تزال تطبق في تقصي الحقيقة من خلال الفن . لهذا أؤيدها ككاتب لكني كمواطن لا أستطيع ذلك . وكمواطن لا بد لي من أن أسأل : ما الشيء الصادق ؟ وما الشيء الكاذب؟

أن الحقيقة في الدراما مراوغة دائماً . فلن تجدها تماماً . لكن البحث عنها ملزم . من الواضح أن البحث يحث المسعى . مهمتك البحث . وفي أحيان كثيرة إن لم تتعثر بالحقيقة في الظلام ، فإنك تصطدم بها أو تلمح صورة أو شكلا يبدوان متطابقين مع الحقيقة دون أن تعي ذلك أحياناً . لكن الحقيقة الصادقة لا يمكن أن توجد أبداً كحقيقة واحدة نجدها في الفن الدرامي . فهناك العديد منها . وهذه الحقائق تتحدى أحداها الأخرى ، وترتد إحداها على الأخرى ، وتعكس أحداها الأخرى ، وتهمل أحداها الأخرى ، وتزعج إحداها الأخرى ، وبالتالي فهي محجوبة الواحدة عن الأخرى . أحياناً تشعر أن الحقيقة بين يديك للحظة ثم تنزلق من بين أصابعك وتفقدها . أحياناً يسألني الناس" كيف تبتدع مسرحياتك؟" . لا أستطيع الإجابة ، ولا يمكنني أن أوجز مسرحياتي سوى أن أقول أنّ هذا هو الذي حدث . ذلك ما قالته و ذلك ما فعلته .

المسرحيات أغلبها تتشكل بوساطة سطر أو كلمة أو صورة وكثيراً ما تلحق الكلمة المحددة بعد وقت قصير بالصورة. سوف آتي بمثالين من سطرين ظهرا مباشرة بشكل مفاجئ في رأسي ثم تبعتها صورة وألحقها.

المسرحيتان هما : (العودة إلى الديار) و (الأيام الخوالي) .السطر الأول من مسرحية "العودة إلى الديار" هو :" ماذا عملت بالمقصات؟" والسطر الأول من مسرحية " الأيام الخوالي" هو " داكن".

وفي كل حالة لم تكن لديّ معلومات إضافية.

في الحالة الأولى هناك شخص من الواضح أنه كان يفتش عن زوج من المقصات وعن مكان وجودها من شخص آخر كان يشك في أنه سرقها، لكني بطريقة أو بأخرى عرفت أن الشخص المخاطب ليس مهتماً بالمقصات أو السائل بسبب المسألة تلك.

" داكن" اتخذت هذه الكلمة لتكون وصفاً لشعر شخص ما ، شعر امرأة ،وكان جواباً عن سؤال. وفي كل حالة وجدت نفسي ملزماً على متابعة الموضوع. وحدث هذا بصرياً ، خبو بطيء ، عبر الظل إلى الضوء.

دائماً أبدأ المسرحية بتسمية الشخوص (أ ، ب ، ج).

في المسرحية التي أصبحت تسمى "العودة إلى الديار" رأيت رجلاً يدخل غرفة فارغة ويطرح سؤالاً على رجل أصغر سناً منه يجلس على أريكة وسخة ويقرأ صحيفة للسباقات، وكنت بطريقة أو بأخرى أشكّ في أن (أ) كان يمثل الأب و (ب) يمثل ابنه ، لكن ليس لديّ برهان. غير أن هذا قد تأكد لي بعد فترة قصيرة حين يقول (ب) (الذي يسمى فيما بعد "ليني") لـ (أ) (الذي يسمى فيما بعد "ماكس") " أبي هل تمانع لو أني غيرت الموضوع ؟ أريد أن أسألك سؤالاً، الوجبة التي أكلناها ما اسمها ؟ ماذا تسميها ؟ لماذا لا تشتري كلباً ؟ إنك طاهي كلاب، محترم. تعتقد أنك تطبخ لعدد كبير من الكلاب". إذن بما أن (أ) يدعو (ب) بأبي فيبدو لي أن من المعقول الافتراض بأنهما كانا أباً وابناً. ومن الواضح أيضاً أن (أ) هو الطباخ ولا يبدو أن طبخه يلقى اهتماماً كبيراً. هل يعني هذا أنه لم تكن هناك أم؟ لا أعرف. لكن ، كما قلت لنفسي حينها ، إن بداياتنا لا تعرف أبداً نهاياتنا.

"داكن" .نافذة كبيرة. سماء مسائية. (أ) رجل (يسمى فيما بعد "ديلي") وامرأة (ب) (تسمى فيما بعد كيت) ، يجلسان و يشربان. يسأل الرجل :" سمين أم نحيف؟" عم يتحدثان؟ لكني بعد ذلك رأيت بعد وقوفي قرب النافذة امرأة (ج) (تسمى فيما بعد آنا) في بقعة أخرى من الضوء ، وهي تعطي ظهرها لهما بشعر داكن.

إنها لحظة غريبة ، لحظة خلق الشخوص ، التي ليس لها وجود حتى اللحظة تلك. وما يتبع ذلك فهو مليء بالتشنج والشك والهلوسة أيضاً على الرغم من أنه في بعض الأحيان يكون انهياراً غير قابل للتوقف. إن موقف الكاتب هو نوع غريب بمعنى أنه غير مرحب به من قبل الشخوص. فالشخوص تقاومه ، فليس من السهل العيش معهم ، وهم عصيون على التعريف. إنك لا تستطيع أن تملي عليهم، وبقدر محدود تلعب معهم لعبة لن تنتهي أبداً ، لعبة القط والفأر، ولعبة الغميضة. لكن تكتشف أخيراً أن لديك ناساً من لحم ودم بين يديك، يمتلكون إرادة وحساً فردياً ، مخلوقين من أجزاء مركبة لا يمكنك تغييرها أو التلاعب بها أو تشويهها.

لهذا تبقى اللغة في الفن إجراء غامضاً ، رمالاً متحركة ، بهلوانية ، حوضاً متجمداً قد ينهار تحتك في أي لحظة أيها المؤلف.

لكن ، كما قلت ، البحث عن الحقيقة لا يمكن أن يتوقف أبداً و يرجئ أو يؤجل ولا بد من مواجهتها حالاً في المكان نفسه.

يمثل المسرح السياسي مجموعة جدّ مختلفة من المشاكل ، ولابد من تجنب الوعظ مهما كلف الأمر فالموضوعية ضرورية إذ ينبغي أن ندع الشخوص تتنفس هواءها الخاص، ولا يمكن للمؤلف أن يحصرها و يقلصها كي يشبع ذوقه أو مزاجه أو هواه، ويجب أن يتهيأ لتقديمها من مختلف الزوايا ومن مجال واسع وغير مقيد من المنظورات (وجهات النظر) ، وأن تفاجئها ، أحياناً ، لكن مع ذلك يعطيها حرية الذهاب إلى أي وجهة، وهذه الوسيلة لا تنجح دائماً. والهجاء السياسي ، بطبيعة الحال ، لا يلتزم بأي من هذه المبادئ ، وهو في الواقع يخالف وظيفته الصحيحة.

في مسرحية " حفلة عيد الميلاد" اعتقد أني استخدمت عدداً واسعاً من الخيارات كي أشتغل في غابة كثيفة من الاحتمالات قبل أن أركز في النهاية على فعل الخضوع.

وتتظاهر مسرحية " لغة الجبل" بأنها لا تخضع لهذا النطاق من العملية. أتبقى قاسية وقصيرة وبشعة؟ قد ينسى المرء أحياناً أن التعذيب من السهولة أن يصبح مملاً. لكن الجنود في المسرحية يستخلصون شيئاً من المزاح منها. فهم يحتاجون إلى قليل من الضحك كي يظلوا محتفظين بأرواحهم، و قد أكدت ذلك الأحداث التي وقعت في "أبو غريب" في بغداد.

إن مسرحية " لغة الجبل" تستغرق عشرين دقيقة فقط ، و كان يمكن أن تستمر ساعة بعد أخرى، تستمر طويلاً ، الطراز نفسه يعاد مرة بعد أخرى ، يستمر ويستمر ، ساعة بعد أخرى.

من جهة أخرى ، تبدو لي مسرحية " من رماد إلى رماد " أنها تحدث تحت الماء. امرأة غريقة ، يداها تمتدان عبر الأمواج ، وتسقطان بمنأى عن الأنظار ، تمتدان للآخرين ، لكنهما لا تثيران أحداً ، سواء فوق الماء أم أسفله ، لا تجدان سوى الظلال والانعكاسات والأشياء الطافية ، المرأة جسد ضائع في منظر الغرق ، غير قادر على الهرب من القدر الذي بدا أنه يعود لناس دون غيرهم.

لكنها كما ماتوا لا بد من أن تموت أيضاً.

إن اللغة السياسية ، كما استعملها السياسيون ، لا تغامر بالدخول إلى هذه المنطقة. طالما أن السياسيين ، طبقاً للدليل المتوفر لدينا ، مهتمون لا بالحقيقة بل بالسلطة. وللمحافظة على هذه السلطة لا بد من أن يبقى الناس في جهل ، إذ أنهم يعيشون في جهل للحقيقة ، حتى حقيقة

هارولد بنتر

حياتهم الخاصة لهذا فإن ما يحيطنا هو نسيج واسع من الأكاذيب التي نتغذى عليها.

وكما يعرف الجميع هنا ، فإن المبرر لغزو العراق كان امتلاك صدام حسين لجزء جدّ خطر من أسلحة الدمار الشامل ، قد يكون بعضها قد جرى تفجيره في خمس وأربعين دقيقة مسبباً دماراً مروعاً. وأكدوا لنا أن ذلك كان صحيحاً إلا أنه لم يكن كذلك. وقد أخبرونا بأن العراق له علاقة بالقاعدة ويشارك في مسؤولية الهجوم الوحشي على نيويورك في ١١ أيلول ٢٠٠١ وأكدوا لنا بأن ذلك كان صحيحاً إلا أنه لم يكن كذلك. وأخبرونا بأن العراق يهدد الأمن العالمي وأكدوا لنا أن ذلك كان صحيحاً إلا أنه لم يكن كذلك.

والحقيقة شيء مختلف تماماً. الحقيقة لها علاقة بكيفية فهم الولايات المتحدة دورها في العالم وكيفية تجسيدها له. لكن قبل أن أعود إلى الحاضر أود أن ألقي نظرة على الماضي القريب والذي أعني به السياسة الخارجية للولايات المتحدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية واعتقد أنه من الملزم علينا أن نخضع هذه الفترة في الأقل إلى نوع من الفحص المحدد والذي يسمح بحضور كل تلك الفترة هنا.

الجميع يعلم ماذا حدث في الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية أثناء فترة ما بعد الحرب: الأعمال الوحشية المنظمة والأعمال الفظيعة واسعة النطاق والقمع القاسي للفكر المستقل. وقد جرى توثيق ذلك وتثبيته.

لكن جدالي هنا هو أن جرائم الولايات المتحدة في الفترة نفسها قد سجلت بشكل سطحي فقط ولم توثق أو يعترف بها أو يجري تمييزها كجرائم مطلقا، واعتقد أن هذا يجب أن يوجه وأن للحقيقة صلة مهمة بما يقوم عليه العالم الآن. وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة كانت مقيدة إلى حد ما بوجود الاتحاد السوفيتي إلا أن أفعالها عبر العالم جعلت من الواضح الاستنتاج أن لديها السلطة المطلقة في عمل ما ترغب به.

إن الغزو المباشر لدولة ذات سيادة ليس الطريقة المفضلة لأميركا. فهي في الأغلب كانت تفضل ما تصفه " بالنزاع ذي الحدة القليلة" ويعني " النزاع ذي الحدة القليلة" أن يموت الآلاف من الناس لكن أبطأ مما لو ألقيت عليهم قنبلة في انقضاض واحد مميت.

وهو يعني أنت تلوث قلب البلد وتنشئ ورماً خبيثاً وتراقب تطور الغنغرينا. وحين يتم قهر الجماهير —أو ضربها حتى الموت ، الأمر سيان- وأصدقاؤك —الذين هم من المؤسسات العسكرية الكبيرة ، يجلسون في السلطة مرتاحين ، تذهب أمام الكاميرا لتقول أن الديمقراطية قد انتصرت. وكان هذا شائعاً في السياسة الخارجية للولايات المتحدة في السنوات التي أشرت إليها. كانت مأساة نيكاراغوا قضية غاية في الأهمية، وارتأيت أن أقدمها هنا كمثال قوي على رؤية أميركا لدورها في العالم سابقاً ولاحقاً.

كنت حاضراً في اجتماع في السفارة الأميركية في لندن في أواخر الثمانينيات. وكانت الولايات المتحدة ستقرر إن كانت ستعطي المزيد من الأموال إلى " الكونترا" في حملتها ضد حكومة نيكاراغوا وكنت عضواً في الوفد المفاوض أتكلم لصالح نيكاراغوا ، لكن أهم عضو فيه كان الأب "جون متكالف" وكان رئيس الوفد الأميركي هو " ريموند سايتز" (الشخص الثاني في السفارة ثم أصبح هو السفير). قال الأب "متكالف" :" سيدي، إني القيم على أبرشية في شمال نيكاراغوا وقد بنى أبناؤها مدرسة ومركزا صحيا ومركزاً ثقافياً. أننا نعيش في سلام. وقبل بضعة أشهر هاجمت قوة من "الكونترا" الأبرشية ودمرت كل شيء: المدرسة والمركزين الصحي والثقافي. اغتصبت الممرضات وذبحت الأطباء بمنتهى الوحشية، وتصرفت كالوحوش أرجوك أن تطلب من حكومة الولايات المتحدة أن تسحب دعمها لهذه المنظمة الإرهابية المثيرة للرعب". كانت لريموند ساينز مكانة طيبة كونه رجلاً عاقلاً ومسؤولاً ومحنكاً. وكان يلقى بالغ الاحترام من لدن الدوائر الدبلوماسية. أصغى ثم توقف وتكلم بوقار :" أيها الأب، دعني أخبرك شيئاً، في الحرب ، الناس الأبرياء يعانون دائما". وكان ثمة صمت جليدي. نظرنا إليه فلم يجفل.

حقاً أن الناس الأبرياء يعانون دائماً.

أخيراً تكلم أحدهم قائلاً:" لكن في الحالة هذه كان "الناس الأبرياء " هم ضحايا الأعمال الوحشية الشنيعة التي تساندها حكومتكم ، واحدة من بين العديد، فإذا ما قدم الكونغرس المزيد من المال إلى الكونترا ستحدث الكثير من الأعمال الوحشية من مثل هذا النوع. أليست هذه هي القضية ؟ أليست حكومتكم لهذا السبب مذنبة في دعم الأعمال الإجرامية وتدمير مواطني دولة ذات سيادة ؟".

كان سايتز رابط الجأش فأجاب:" لا أتفق على أن الحقائق كما قدمت تدعم تأكيداتك".بينما كنا نغادر السفارة أخبرني معاون أميركي أنه يستمتع بمسرحياتي فلم أجب.

علي أن أذكركم أنه في ذلك الوقت صرح الرئيس ريغان بالعبارة التالية :" إن الكونترا هي المعادل الأخلاقي لآبائنا المؤسسين".

دعمت الولايات المتحدة دكتاتورية سوموزا الوحشية في نيكاراغوا لأكثر من أربعين سنة وقام الشعب النيكاراغوي الذي قاده الساندنستيون بإسقاط هذا النظام عام ١٩٧٩ في الثورة الشعبية المثيرة.

لم يكن الساندنستيون مثاليين، فكان لهم نصيب كبير من العجرفة وتحتوي فلسفتهم على عدد من العناصر المتناقضة، لكنهم كانوا أذكياء متعقلين وحضاريين. بدأوا ينشئون مجتمعاً مستقراً تعددياً مقبولاً، فقد ألغيت عقوبة الإعدام وعادت إلى الحياة مئات الآلاف من الفلاحين المبتلين بالفقر وأعطيت أكثر من مئة ألف عائلة الحق في امتلاك الأرض وتم بناء ألفي مدرسة وقامت حملة لمحو الأمية قللت نسبة من الأمية في البلد، وأنشئ التعليم المجاني والخدمة الصحية المجانية وانخفضت نسبة وفيات الأطفال إلى الثلث وقضي على شلل الأطفال. أنكرت الولايات المتحدة هذه الإنجازات كونها تخريباً ماركسياً لينينياً. ومن وجهة نظر حكومة الولايات المتحدة فقد تم تأسيس نموذج خطير. فإذا ما سمح لنيكاراغوا بتأسيس قيم أساسية منها العدالة الاجتماعية والاقتصادية وإذا ما سمح لها بإنشاء مقاييس للعناية الصحية والتعليم وإنجاز الوحدة الاجتماعية والاحترام الوطني ، فإن البلدان المجاورة سوف تسأل الأسئلة نفسها وتفعل الأمور نفسها. كانت هناك بطبيعة الحال مقاومة شديدة للوضع الراهن في السلفادور.

تحدثت قبل قليل عن " نسيج الكذب" الذي يحيط بنا. وكان الرئيس ريغان عادة ما يصف نيكاراغوا بـ " حصن الدكتاتورية"، وكانت وسائل الأعلام ، وبالتأكيد الحكومة البريطانية، تنقلها كونها وصفاً صحيحاً ودقيقاً، لكن لم يكن في الواقع تسجيل لفرق الإعدام تحت حكم الساندنستيين، ولم يكن دليل على وجود التعذيب، ولم يكن تسجيل أعمال وحشية عسكرية رسمية منظمة ، حتى الكهنة لا يقتلون في نيكاراغوا. في الواقع كان هناك ثلاثة كهنة في الحكومة ، اثنان من اليسوعيين وواحد من أبرشية " ماري كنول". الحصون الدكتاتورية موجودة في دول الجوار ، في السلفادور وغواتيمالا فقد أسقطت الولايات المتحدة الحكومة المنتخبة ديمقراطياً في غواتيمالا عام ١٩٥٤ ، ومن المحتمل أنّ أكثر من ٢٠٠ ألف شخص كانوا ضحايا الدكتاتوريات العسكرية المتعاقبة.

وقد جرى قتل وحشي لستة من أبرز اليسوعيين في العالم في " الجامعة الأميركية المركزية" في سان سلفادور عام ١٩٨٩ من قبل كتيبة من فوج " الكاتل" الذي يتدرب في "فورت بننغ في ولاية جورجيا بالولايات المتحدة. وقد جرى اغتيال ذلك الرجل الشجاع رئيس الأساقفة روميرو بينما كان يلقي القداس ومن المحتمل أن ٧٥ ألف شخص قد ماتوا.لماذا جرى قتلهم؟ لقد قتلوا لأنهم ظنوا أن الحياة الأفضل ممكنة ويجب تحقيقها. وبسبب هذا الاعتقاد جرى التشكيك بهم كونهم شيوعيين. لقد ماتوا لأنهم تجرأوا على مساءلة الوضع الراهن والامتداد اللامتناهي من الفقر والمرض والإهانة والقمع التي أصبحت ميراثهم.

أخيراً أسقطت الولايات المتحدة الحكومة الساندنستية وتطلب الأمر بضع سنوات ومقاومة كبيرة لكن المضايقة الاقتصادية القاسية وموت ٣٠ ألف شخص أضعفت روح الشعب النيكاراغوي. كانوا منهكين فابتلوا بالفقر مرة أخرى. عادت نوادي القمار داخل البلاد. انتهى نظاما الصحة والتعليم المجانيين. وعادت التجارة الكبرى منتقمة وانتصرت " الديمقراطية".

لكن هذه السياسة لم تكن محددة بأميركا الوسطى مطلقا فقد جرى نقلها وتطبيقها في العالم. لم تكن منتهية أبداً كأنها لم تحدث أبداً.

ساندت الولايات المتحدة وفي بعض الحالات أنشأت كل الدكتاتوريات العسكرية اليمينية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وأشير هنا إلى أندونيسيا واليونان وأورغواي والبرازيل وبارغواي وهاييتي وتركيا والفلبين وغواتيمالا والسلفادور ، وتشيلي، وبالطبع، الفظائع التي ارتكبتها الولايات المتحدة في تشيلي عام ١٩٧٣ لا يمكن تبرأتها أو غفرانها.

لقد وقع مئات الآلاف من الموتى في هذه البلدان. هل وقعت؟ وهل ممكن عزوها في كل الاحوال إلى السياسة الخارجية للولايات المتحدة ؟ حتى لو حدثت فكأنها لم تحدث. الأمر ليس موضع اهتمام. فجرائم الولايات المتحدة أصبحت منظمة ثابتة شنيعة قاسية ، لكن القلة من الناس تتحدث عنها فعلياً. عليكم أن تسلموها باليد إلى أميركا. لقد مارست التلاعب الصارم بالسلطة في أنحاء العالم بينما تنكرت كونها قوة خير عالمية. أنه فعل التنويم المغناطيسي وهو قمة الذكاء والمهارة والنجاح.

أؤكد لكم أنّ الولايات المتحدة هي بلا شك المسرح الأكبر الجوّال، وهي وإن كانت قاسية وغير مبالية وهازئة وبلا رحمة إلا أنها جد ذكية أيضاً. وكبائعة أكثر بضاعتها بيعاً هي حبها للذات. إنها الفائزة. استمع لكل الرؤساء الأميركان في التلفزيون وهم يرددون كلمتي " الشعب الأميركي" كما في العبارة التالية :" أقول للشعب الأميركي ، حان الوقت لكي نصلي وندافع عن حقوق الشعب الأميركي وأطلب من الشعب الأميركي أن يثق برئيسه في الحرب التي سيشنها من أجل الشعب الأميركي".

إنها خدعة تطلق شرراً. وقد وظفت اللغة فعلياً لإبقاء الفكرة في وضع حرج. وكلمتا "الشعب الأميركي" تضع وسادة شهوانية حقاً من إعادة الطمأنة (التوكيد) فلا تحتاج أن تفكر ، تمدد على الوسادة فقط. وربما تخنق الوسادة ذكاءك وقابلياتك النقدية لكنها جد مريحة، وهذا لا ينطبق بطبيعة الحال على ٤٠ مليوناً من الناس الذين يعيشون تحت خط الفقر والمليونين من الرجال والنساء المحتجزين في غولاغ شاسع من السجون الممتدة في الولايات المتحدة.

لم تعد الولايات المتحدة منزعجة من النزاع ذي الحدة القليلة ولم تعد ترى أي هدف في بقائها متكتمة أو حتى مخادعة، إنها تعرض أوراقها على المنضدة دون خوف أو منة، إنها ببساطة تامة لا تهتم بالأمم المتحدة والقانون الدولي والمعارضة والانتقادات وتعتبرها ضعيفة لا علاقة لها ولديها أيضاً خروفها الصغير الذي يثغو خلفها ، "بريطانيا العظمى " الكسولة المثيرة للشفقة.

ما الذي حدث لحسّنا الأخلاقي ؟ هل كنا نمتلكه دائماً؟ ماذا تعني هذه الكلمات ؟ وهل تشير إلى مصطلح من النادر توظيفه هذه الأيام —الضمير ؟ الضمير الذي ليس له علاقة بأفعالنا فحسب بل بمسؤوليتنا المشتركة في أفعال الآخرين ؟ هل مات كل ذلك؟ انظر إلى خليج غوانتنامو. المئات محتجزون لأكثر من ثلاث سنوات دون اتهام، فليس ثم تمثيل قانوني ولا دعوى قضائية مستحقة وهم تقنياً محتجزون إلى الأبد. وهذا الهيكل غير الشرعي تماماً ظل يخرق معاهدة جنيف. إنه عمل غير متسامح لكن من الصعب التفكير بما يسمى "المجتمع الدولي". وهذا الانتهاك الإجرامي ارتكبته دولة تعلن عن نفسها كونها "زعيمة العالم الحر". هل فكرنا بساكني خليج غوانتانامو ؟ ماذا تقول عنهم وسائل الإعلام ؟ فهم يظهرون في بعض الأحيان فجأة —فقرة صغيرة على الصفحة السادسة. لقد أودعوا الأرض التي لا يوجد فيها إنسان والتي لن يعودوا منها أبداً. وحالياً العديد منهم مضربون عن الطعام ، وقد جرى إجبارهم على تناول الطعام وبضمنهم من المقيمين في بريطانيا. ولا تفاصيل عن إجراءات الإكراه على تناول الطعام. لا مسكّن أو مخدر، فقط أنبوب يلصق على الفم وعلى الحنجرة وتتقيأ دماً. هذا تعذيب. ماذا قال وزير خارجية بريطانيا عن هذا ؟ لاشيء. ماذا قال رئيس وزراء بريطانيا عن هذا ؟ لاشيء. لماذا؟ لأن الولايات المتحدة قالت :" إن توجيه النقد إلى عملنا في خليج غوانتانامو يشكّل سلوكا معاديا. فإما أن تكون معنا أو تكون ضدنا، ولهذا السبب صمت بلير.

إن غزو العراق عمل لصوصي وفعل إرهابي صارخ ويعد ازدراء مطلقاً لمفهوم القانون الدولي. وكان عملاً عسكرياً اعتباطياً أثارته سلسلة من الأكاذيب والتلاعب الفاضح بوسائل الأعلام ومن ثم بالجماهير؛ وهو عمل قصد منه تثبيت العسكرية الأميركية والسيطرة الاقتصادية على الشرق الأوسط متنكرة بالتحرير. وكمسعى أخير ، أن كل المبررات فشلت في تسويغ نفسها. الإصرار المرعب على القوة العسكرية المسؤولة عن موت وإعاقة الآلاف والآلاف من الناس الأبرياء.

لقد جلبنا التعذيب والقنابل العنقودية واليورانيوم المنضب والأعمال التي لا تحصى من الجريمة غير المنظمة والتعاسة والإهانة والموت للشعب العراقي وندعوها " منح الحرية والديمقراطية في الشرق الأوسط".

كم من الناس عليك أن تقتل كي تتأهل إلى صفة القاتل الجماعي ومجرم حرب؟ مئة ألف؟ اعتقد أن العدد أكثر من كاف، لهذا يكون من المنصف أن يمثل بوش وبلير أمام محكمة العدل الدولية. لكن بوش كان ذكياً فلم يقر بمحكمة العدل الدولية. لهذا إذا ما وجد جندي أميركي أو سياسي بسبب تلك المسألة نفسه في قفص الاتهام فإن بوش يحذر من أنه سوف يرسل المارينز. لكن بلير أقر بالمحكمة لهذا فمن الممكن حضوره للمقاضاة وإذا ما اهتمت المحكمة بالحصول على عنوانه فنحن مستعدون لإعطائه وهو: رقم ١٠ داوننغ ستريت ، لندن.

إن الموت في هذا السياق ليس له علاقة بالموضوع. إن كل من بوش وبلير لم يوليا قضية الموت أهمية ففي الأقل قتل ١٠٠ ألف عراقي بواسطة القنابل والصواريخ الأميركية قبل أن تبدأ حركة المسلحين.هؤلاء الناس ليس لهم أهمية وموتهم ملغى. أنهم بياض. حتى أنهم لم يدونوا في سجلات الوفاة. يقول الجنرال الأميركي تومي فرانكس:" ليس لدينا إحصائيات للجثث".

في بداية الغزو نشرت صورة في الصفحة الأولى لجريدة بريطانية تصور توني بلير وهو يقبّل خد طفل عراقي صغير ويقول التعليق على الصورة :" طفل معبر عن الشكر". وبعد بضعة أيام كانت هناك قصة وصورة في الصفحة الداخلية ، لطفل آخر عمره أربع سنوات بلا ذراعين وقد دمر صاروخ عائلته، وكان هو الناجي الوحيد. وهو يسأل:" متى استرد ذراعي". وقد انقطعت القصة. حسن. إن توني بلير لم يحمل بذراعيه أي طفل آخر مقطوع الأعضاء ولا أي جسد دام، لأن الدم وسخ، أنه يوسخ قميصك وربطتك حين تلقي خطاباً صريحاً في التلفزيون.

كان الموتى الأميركان الذين يبلغون الألفين مبعث ارتباك، فقد نقلوا إلى قبورهم في جنح الظلام، والجنائز محفوظة بأمان وقد تعفنت الأعضاء المبتورة في أفرشتهم ، بعضه لراحة حياتهم. لهذا فإن الموتى والمبتورين كلهم متعفنون في مختلف أنواع القبور.

قلت سابقاً ان الولايات المتحدة الآن صريحة في عرض أوراقها على المنضدة. تلك هي المسألة. وسياستها المعلنة الرسمية تعرف الآن بـ" الهيمنة ذات الطيف الكامل". وهذا المصطلح ليس من عندي بل صاغوه. و مصطلح " الهيمنة ذات الطيف الكامل" يعني السيطرة على الأرض والبحر والجو وكل المصادر الحاضرة. تمتلك الولايات المتحدة الآن ٧٠٢ قاعدة عسكرية عبر أنحاء العالم في ١٣٢ بلداً هذا استثناء جدير بالاحترام من السويد بطبيعة الحال ولا نعرف تماماً كيف أصبحوا هناك ولكنهم من غير ريب هناك.

تمتلك الولايات المتحدة ٨٠٠٠ رأس نووي جاهز للعمل ألفان منها تشتغل بإنذار المقداح الحساس وهي جاهزة للأطلاق خلال ربع ساعة وتعد من الأنظمة الجديدة المتطورة في القوة النووية وتعرف بـ" المستودع الضخم". والبريطانيون ، متعاونون أيضاً ، يريدون أن يستبدلوا صاروخهم النووي "ترايدنت". أتساءل من يستهدفون به ؟ أسامة بن لادن؟ أنتم؟ أنا؟ جو دوكس ؟ الصين ؟ باريس ؟ من يدري ؟ ما نعرفه أن هذا الجنون الصبياني —امتلاك الأسلحة النووية واستخدامها في التهديد —هو في قلب فلسفة السياسة الأميركية الحالية. يجب أن نذكر أنفسنا بأن الولايات المتحدة تقف على أساس تسليحي دائم ولم تظهر أي دليل على تخفيفه.

إن آلافا ، إن لم نقل الملايين من الأميركيين في الولايات المتحدة نفسها هم على نحو ممكن أثباته ، مشمئزون وخجلون وغاضبون من تصرفات حكومتهم. ولما تستقيم الامور فهم ليسوا قوة سياسية متماسكة حتى الآن. لكن القلق والشكوكية والخوف التي نراها تنمو يومياً في الولايات المتحدة من غير المحتمل أن تتلاشى.

أعرف أن الرئيس بوش لديه العديد من كتبة خطاباته المقتدرين لكني أود أن أتطوع للعمل بنفسي واقترح الخطاب القصير التالي الذي نستطيع أن نقدمه من خلال التلفزيون إلى الأمة. أراه وقوراً وشعره ممشطا بعناية ، جدياً ، مخلصاً ، و خادعاً أحياناً بابتسامة ساخرة ، جذاباً بشكل غريب محباً لصحبة الرجال دون النساء.

" الرب طيب. الرب عظيم. ربي طيب. ورب بن لادن سيء. إنه رب سيء. رب صدام كان سيئاً إن لم نقل أنه لم يكن له رب. كان بربرياً. ونحن لسنا برابرة. لا نقطع رؤوس الناس.نؤمن بالحرية. كذلك الرب. إني لست بربرياً. إني الرئيس المنتخب بالديمقراطية المحبة للحرية. نحن مجتمع رحيم. نحن ننفذ إعدامات تمتاز بالرحمة (بالكرسي الكهربائي) والحقنة المميتة الرحيمة. نحن أمة عظيمة. إني لست دكتاتوراً. إنه هو الدكتاتور. إني لست بربرياً. إنه هو البربري. كلهم برابرة. إني امتلك سلطة أخلاقية. هل ترى هذه القبضة ؟ إنها سلطتي الأخلاقية فلا تنسها."

إن حياة الكاتب عرضة للهجوم وهي نشاط أعزل. لا يتوجب علينا أن نبكي من أجل ذلك فالكاتب يضع اختياره ويلتصق به. لكن من الصحيح القول بأنك معرض لكل الرياح وبعضها جليدي فعلا. إنك متروك ومهجور فلا تجد ملجأ ولا حماية إن لم تكذب. الشيء المتوقع أنك تنشئ حمايتك الخاصة وتصبح سياسياً وهو أمر ممكن الجدال فيه.

حين ننظر إلى المرآة نعتقد أن الصورة التي تتطابق معنا دقيقة ومنضبطة، لكن تحرك مليمترا واحدا تجد أن الصورة قد تغيرت. إننا في الواقع ننظر إلى عدد لا متناه من الانعكاسات لكن على الكاتب أن يحطم المرآة أحياناً لأن في الجانب الآخر منها توجد الحقيقة التي تحدق إلينا.

اعتقد أنه على الرغم من الميزات الكبيرة الموجودة فإن عزمنا الفكري غير المرتاع وغير المنحرف كمواطنين على تعريف الحقيقة الصادقة لحياتنا ومجتمعاتنا هي التزام حاسم يؤول إلينا جميعاً. إنه في الواقع إجباري.

فإذا لم يتجسد هذا الالتزام في رؤيتنا السياسية فلا أمل في استعادة ما فقدناه على نحو جدّ وثيق —كرامة الإنسان.